

كما كان في العصر العباسي وبعده؛ وبلغ ذلك التآله أوجه في مثل جنكيزخان و تيمورلنگ و اشباههما. إن نظرة الإسلام إلى الألوهية، و الدعوة إلى إله واحد يتساوى أمامه الناس جميعاً. تقضى على كل فكرة من شأنها وجود طبقة يكون لها الشفاعة أو الوساطة بين الله و خلقه، ولكن ما لبث المسلمون أن عادوا إلى سيرتهم الجاهلية الأولى، فاتخذوا أصنافاً من الناس شفعاء يستشفعون بهم عند الله و يتقربون بهم إلى الله، متأثرين بالديانات القديمة، أما الإسلام نفسه فيدعوا إلى أنه لا حجاب بين أي عبد مهما ضعف و بين الله. و قد عاب على النصارى و اليهود اتخاذهم أخبارهم و رهبانهم، أرباباً من دون الله.

ولعل السبب في ذلك، أن هذه العتميدة الصحيحة، عقيدة الإيمان بالله وحدة، و الخضوع له وحده، و عبادته وحده، تحتاج إلى رياضة شديدة في تصفية النفس من الشوائب، و النفوس القوية عادة تعشق التآله و الاستعلاء، و النفوس الضعيفة سرعان ما تستسلم، و هذا مشاهد في كل أمة، و في كل جماعة، و في كل عصر، من عهد أن قال فرعون: "أنا ربكم الأعلى" و من قبله و من بعده. و هؤلاء الأقوياء يتخذون لتآلهم أشكالاً و ألواناً من المظاهر. فمنهم من يتآله بجنوده و بنوده، و كثرة ماله و نحو ذلك. و منهم كبار المستبدين في أمهم مثل نابوليون، و مثل هتلر و ستالين، و منهم كبار أصحاب رؤوس الأموال في كل أمة، و نحو ذلك، كلهم يتآلهون، و كل الناس حولهم تؤلهم، و إن لم يسلم الأولون أنفسهم آلهة، و إن لم يسم الآخرون أعمالهم عبادة، ولكن العبرة بالحقيقة لا بالأسماء. و الإسلام يكره هذا التآله بجميع أشكاله و ألوانه، و المسلمون - مع الأسف - في كل عصورهم ما عدا الفترة الأولى لم يخل سلوكهم من تآله من جانب القوة، و عبادة و خضوع من جانب الضعف.

هذه ناحية من نواحي التآله و العبودية، يصح أن نسميها ناحية سافرة، و هناك ناحية أخرى من التآله و العبودية يصح أن نسميها مُحجبة؛ ذلك أن هناك قوماً لم يكن لهم من قوة السلطان، و كثرة المال و الجنود و العصيبة، ما يمكنهم.